كيف نحبب العمل الى الصبيان

وقيمة العمل فى المجتمع

من أقوال برنارد شو إن الرجل الصالح هو الذى يترك العالم عند وفاته وقد أنتج له أكثر مما استهلك منه . وقد نجد أقيسة أخرى للرجل الصالح ، ولكن لا شك فى أن هذا القياس كاف ، لأن الشخص الذى يستهلك فى حياته أكثر مما ينتج إنما يعيش بعض حياته عالة على كد غيره ، وليس هذا مستساغا إلا فى ظروف خارجة عن إرادته كأن يموت الأبوان قبل أن يبلغ سن العمل أو كأن يصاب بمرض يعوقه من الانتاج .

ومن هنا كانت الضرورة المحتومة على كل مجتمع أن يعلم أفراده قيمة العمل و يعودهم عادات العمل المنظم و يوجههم وجهة الانتاج منذ أيام الطفولة ، حتى ينشأ الفرد وهو يحس إحساسا يكاد يكون إيمانا بأن العمل فرض يقتضيه الصلاح الإنسانى وأنه لا يجوز للرجل البار أن يعيش دون أن ينتج .

إن للجرائم أسبابا كثيرة ليس جهل هذه الحقيقة أقلها . فان كثيرا من الناس ينشأون فى بيوت قد سادها التدليل فقضوا صباهم وهم يجدون ما يطلبون بلا عناء كأن الأشياء تأتى اليهم بمجرد طلبها ، ينادون فيستجاب لهم و يأمرون فيطاعون . وهذا الأسلوب الذى تعلموه فى الصبا يلازمهم فى الشباب والكهولة ، فكأنهم يريدون أن يعيشوا دون أن ينتجوا وما ذلك إلا لأنهم لم يتعودوا العمل منذ صباهم . وأمثال هؤلاء قد يستطيعون العيش هانئين وادعين اذا كانوا قد ورثوا عقارا يغل ريعا يؤمنهم و يكفيهم عند الحاجة ، ولكنهم حين لا يجدون مثل هذا الرزق الموروث يتجهون نحو الإجرام ، لأن المجرم يرى أيسر عليه أن يخطف أو يسرق أو يغش أو يزور من أن يقهر نفسه كل يوم على العمل لكى يكسب آخر الشهر أو آخر الأسبوع ما يعيش به إذ هو لم يتعود هذه المرانة التى تعد نفسية كما هى يدوية أو ذهنية ، لأن المتمرن على العمل لا يستطيع أن يرتاح الى البطالة ، بل إنه ليجد السعادة فى مداومة هذا العمل ، وهى واجب مطلوب كما هى حق منشود له لذته بل له سحره .

ولذلك يتجه الإصلاح فى السجون على الدوام الى تعليم المسجون عملا يمكنه أن يعيش منه حين يفرج عنه . ولكن يجب ألا نخدع أنفسنا . فان العمل لا ينقص المسجونين . و إنما المرانة النفسية والرغبة الاجتماعية هما ما ينقصانهم . وصحيح أن كثيرا من المسجونين لا يحذق عملا معينا . ولكن لو كان كل من لا يحذق عملا يجنح إلى ارتكاب جريمة لكى يعيش لامتلأت

سجوننا بمئات الألوف . والواقع أن هناك كثيرين من الناس يعملون وينتجون فى غير حذق لصناعة معينة . ومع ذلك فالمجتمع محتاج إلى عملهم هذا مهما بعد عن حدود الكمال والاتقان . وهذا هو الشأن مثلا فى " الفاعل " الذى يعمل بلا حذق فيخدم يوما فى تمهيد الطريق ، ويوما فى بناء المنزل أو فى غير ذلك . وإنما هو يمتاز بشىء واحد هو أنه يحس فى نفسه ميلا الى العمل وإقبالا عليه . وكرها للبطالة وعدم ارتياح اليها ، وهذا ما نسميه المرانة النفسية للعمل التى نشأت من أنه اتجه منذ صباه الى أنه لكى يعيش يجب أن يعمل وينتج وصار له هذا الاتجاه أسلوبا للحياة فوقاه من الإجرام والسجن .

ولهذا السبب يجب أن نعوّد الصبى العمل . ويجب أن نبدأ به وهو طفل فى الخامسة أو السادسة من العمر بأن نكلفه بعض الواجبات الخفيفة التى لا يقصد منها غير المرانة والاتجاه وغرس الأسلوب السلوكى . ونحن فى مصر نحتقر عمل البيت ونستكثر من الخدم لأن أجور الخدم — وخاصة عندما نجلبهم من الريف — رخيصة جدا . ولذلك لا نطلب من أولادنا تنظيف إحدى الغرف أو ترتيب الكراسى أو وضع المائدة . وقد تشب الفتاة إلى أن تبلغ الخامسة عشرة وهى مع ذلك تجهل أصول الطبخ . وقد تعارض أمها فى تعليمها الطبخ لأنها — كما تقول — سوف تكون لها خادمة تهيء لها الطعام . ولكن ليست قيمة الطبخ هنا اقتصادية وإنما هى أخلاقية إذ هى اشعار الفتاة بضرورة العمل وقيمته وأن الإنسان فى هذه الدنيا يجب — لكى يعيش — أن ينتج وينفع .

وبدهى أن المغزى هنا أوقع فعلا وأبلغ أثرا فى الفتى أكثر منه فى الفتاة . لأن مجتمعنا يطالبه بالإنتاج أكثر مما يطالبها . فيجب لهذا السبب أن نبدأ معه وهو فى سن الطفولة ، وأن نعين له مكافآت مالية — غير مصروفه اليومى — لأعمال مختلفة يؤديها حتى ينغرس فى ذهنه مبدأ الكسب من العمل .

وهنا نجد شيئا لا يجوز أن نغفله . فان القاضى لندسى الذى قضى نحو عشرين سنة وهو ينظر فى قضايا الصبيان المجرمين يرى أن الإجازة المدرسية السنوية تطول أكثر مما يجب وهى بطولها تعوّد الصبيان عادات التشرد واللعب وقضاء الأيام المتوالية بلا واجبات يكلفونها . ولذلك ينصح بألا تزيد الإجازات المدرسية السنوية على أسبوعين . ويجب أن نذكر هنا أن الإجازات السنوية فى كل من أمريكا وأوربا لا تزيد على شهرين . وهى عندنا تبلغ أحيانا أربعة أشهر . ولا بد أن لهذه المدة الطويلة أثرا سيئا فى الأخلاق من حيث الإهمال للمرانة النفسية على العمل ، وفى التقدم الدراسى من حيث الإهمال للمذاكرة . ونظن أن هذا الموضوع يستحق الدرس وإعادة النظر عند رجال وزارة المعارف .

والصبي في الريف يختلف من هذه الناحية عن الصبي في المدينة . لأن الأول يجد في الأعمال الزراعية الكثيرة ومصاحبة أبيه أو أمه إلى الحقل ومساعدتهما في واجباتهما ما يجعله يحس كرامة العمل وضرورته ويتخذ من العمل والانتاج شاغلا لحياته . أما صبي المدينة فلا يجد هذا الحافز وقت تعطله من المدرسة سواء أكان هذا التعطل جزءا من اليوم أم أياما متوالية في إجازة طويلة . وهذا هو السبب في أن الصبيان المحرمين ينبتون وينمون في بيئة المدينة لا في بيئة الريف . ومستفرخ جرائمهم هو الشارع والزقاق والترام وأماكن اللهو . ومثل هذا التعطل واستنباط الحيل لاستغلاله بالاجرام لا يوجدان في الريف .

وخلاصة القول إننا يجب أن نغرس حب العمل في الصبيان وأن نجعل العمل عندهم حاجة نفسية وكرامة انسانية وعقيدة راسخة بحيث يحسون حين يشبون أنه ليس من حق أحد أن يعيش ما دام لا ينتج . ويجب لذلك أن نجعل تعطلهم قصيرا مملوءا بالألعاب المفيدة المرفهة . لا طويلا ينسيهم عادة العمل . كما يجب أن نطبع أن نعلمهم صناعة يعيشون منها تشعرهم بفائدتهم وتقيهم من التعطل . وتشعرهم قبل كل شيء بأنهم يتعاونون مع المجتمع بعملهم وكدهم حتى يحسوا أن هذا المجتمع هو صديقهم يتبادلون وإياه المنفعة وأنهم ليسوا عيالا عليه يقتنصون منه الفائدة دون أن يردوا عليه مثلها من كدهم .

ويجب ألا نرمي من قيمة العمل وتحبيبه الى الصبيان الى غاية اقتصادية لأن الغاية الأخلاقية هي أهم وأخطر . فإن الأخلاق إنما تعلم بالمزاولة . فنحن نحس البر حين نتصدق ونسعف الفقير ونجبر المهيض . ونحس الوطنية حين نكتتب لمشروع عام . وهكذا الشأن في الخدمة . فإن الصبي وهو يخدم عائلته أو أصدقاءه يحس التعاون والكرامة . وهذا التعاون هو حب عام للمجتمع يحول دون الجريمة . وهذه الكرامة هي كبرياء وشخصية تمنع من ارتكاب الدنايا .

من روائع الأدب العربي

قال نصير الدين الحامي المصري يصف داره :

ودارٍ خرابٍ بها قد نزلت ... ولكن نزلت الى السابعة
فلا فرق بين أنّي أكون ... بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم ... فتصفى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة ... فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت : اذا زُلزلت ، ... خشيت بأن تقرأ الواقعة